لحظة اللقاء

قصة بقلم عبد العزيز مصطفى

((مهداة الى ثورة اليمن))

***

رفعت عينيها الى النافذة فلم تر شيئا . كانت الظلمة لا تزال كهفا في بطن الجبل والتراب غبار يتساقط في سرعة سبق بها طرفة العين. حتى احتضن الظلام . وصارا معا ـ التراب والظلمة ـ شيئا واحدا يحجب الرؤية . خفضت عينيها بسرعة لتسكت لمحة خوف مسحت على صدرها باظافر وحشية . اطبقت الجفنين فللظلمة رهبة اعتادتها كلما فتحت عينيها مصادفة لكن الليلة ايقظها عواء كلب . او لعله همس غير مفهوم نشأ في الحجرة الضيقة . وكلما اغمضت عينيها نازعتها نفسها ان ترتق الظلام وما ان فعلت حتى وهمها الخوف لكنها تحاملت وظلت رانية في موج من كثافة العتمة ، ربما كانت رغبة خانقة في الصمود للخوف وما لبثت الحجرة ان اتسعت. تهادت الجدران السوداء وتحولت الظلمة الى اجنحة تصطفق وانفتح الافق فبدا الفضاء لا تميزه علامة. وعندما ترددت دمعة كان صوت رفيق كالصرخة يجري في الفضاء وارتصت الظلمة فاشتعلت اجنحتها الخافقة وذلك الصوت الرفيع السريع يجري كالنصل الحاد في احشاء الظلام .

ومرة اخرى ترامى اليها عواء الكلب فائتنست به وساعدها صوته الجريح على أن تمد يدها فتحكم الغطاء حولها وتندس في الوسادة على خدها ضاغطة على عينيها مشفقة ان تتطلع مرة اخرى الى الظلام . الظلام اسرار وما ينبغي ان تقتحمه الا بدعوة. ليس من داع الى الخوف. تحسست الوسادة باصابع رقيقة ومسحت على وجنتيها وجست فمها . قطعة ناعمة متناسقة التكوين . ضغطت برأسها على الوسادة وركلت الهواء وفي بطء سحبت قدمها النافرة . احست بنحافتها ولين جسدها على الفراش الخشن وكانت انفاسها ورعشة اهدابها تشعرها بعامها السابع عشر . والانفاس من حولها همس ضائع . ابوها لا يكاد يعي مما حوله شيئا والصغير الحبيب كانه ليس بأخيها . فهو صغير الى درجة انه لا يدرك هو الاخر مما حوله شيئا . لعل النجوم وحدها هي التي تدرك . ما هذه العباءة الصفراء الكالحة مع قشعريرة البرد في المساء ؟ وما هذا العراء في وهج الشمس اذا تقدم الصبح ومضى بطيئا متثاقلا يئن نهاره بجرح دفين ، وتضج طيوره بلغة غامضة . والعينان الواسعتان تدوران في الفضاء المضيء بالنهار وفي الظلمة العارية بالليل ولا تفهمان شيئا . كل ما فهمته أنها سمراء وأن شابا لمحها ذات يوم تسقي أغنام أبيها الهزيلة تحت نافذة الحجرة البليدة في فضاء المرعى الممتد حتى أبنية الطريق البعيد . وكان الوقت شتاء . والحوض يعكس ماؤه وسامتها الضامرة في رجرجته وقشاته الطافية . هنالك رمقها الشاب وكانت عباءته الفامقة تتدلى من كتفيه فلا تخفي صلابة عوده وفتوته في عضلات وجهه وكثافة شاربة ونظرته الحادة . عينان بنيتان واسعتان لكنهما متعبتان . نظر اليها بقلق كمن يتوقع شرا أو يتربص الخطر ، وظل مسددا نحوها نظرة يزداد الخوف فيها . حتى خيل اليها ان الشاب يوشك من ألم . وهمت أن تجري قدماها . أشاحت بوجهها، ومن وقتها عرفت أنها حلوة . وأن المخدر الغريب علامة كالشرخ الذي يرتفع في وجهها كل صباح في جذع الشجرة الضخمة تحت الربوة. وكالحفر التي تصنعها اقدام الغنم ، وكالسحابة الصغيرة البيضاء الرانية المنعزلة في جنب الافق ، وكقدمي ضاهر الصغير ووجهها الاسمر المعطر تحت طاة الشمس في المرعى المنجهم وصرامة الرياح في الليل .

مرة اخرى غابتها قلق وعادة يلح عليها كلما استيقظت فمدت يدها مستجيبة لرعبه جامحته ولمست وجنتها وفمها وأرنبة أنفها . ليس من حزن ، فلم التساؤل كل ليله عن البشرة وموقع القدم تحت الغطاء ؟ انها تستطيع ان تمسح بانامله على وجهها وان تحيط جسدها النحيل ببطن يدها وأن تمد قدمها فتنعري وتنسلخ من الغطاء او تتكمش حتى تصمر وتصغر وتزوي كورقه صفراء مسالله لا يهم ان يلعب بها الهواء او تدوسها قدم عابره بدمبالاة تستطيع أيضا أن تحدق في العتمة لكنها تصحت على نفسها قد يعاد يجدبها الظلام حتى يثقل جفنها . تود أن تتخلص من انجذابها فتزداد التصاقا بفاشيته كأنها تعاند نفسها أو لا تدري بالضبط ماذا تريد . أبوها أيضا لا يدري ماذا يريد . عمامته البيضاء الكبيرة مهرب عينيها عندما تواجهها عيناه الضائعتان في غياهب الفلاة . وفمه المنغصن ينفخ لينكمش ويتكمش لينفرج عن أسنان صفراء. ليس من ابتسامة او ألم . وتزايد النجاعيد بحركة الفم والمضغ. فهقه أبوها فهربت الى العمامة البيضاء . وهزها بيد خشنة كثيرة الشقوق.

ـ انظري هنا في وجهي .

أخفت وجهها بيديها وبكت . انها تخاف اتساع عينيه . وتكاد تجن كلما أخذ يهذي بفناء الراعي الحزين ، بين أغنامه الهزيلة ، ومن بعيد تبدو اعواد النخيل المائلة كأطياف تتجاوب مع الحزن . وقهقه فمايل رأسه وانحدرت العمامة البيضاء ، وأطلقها باشارة من يده ..

ـ هيا اذهبي الى اغنامك ..

ثم بحزن خافت : ـ اذهبي ..

ما جدوى الحب ؟ انها تحب أباها العجوز وتحب أمها حتى وهي في قبرها المصطف في صفوف القبور وراء المرعى كأنها لا تزال بينهم بل هي تحب صنعاء كلها كما تحب قريتها وضاهر ومع ذلك فها هي تصحب الغنم في المرعى عند أول نفحة من نفحات الشمس تسكبها على الوادي، فتحس بقشعريرة لا تدري مصدرها . لعلها وقعت في براثن السحرة الذين زاروا قريتها في الماضي ، وقتها كانت طفلة ، فلما نما عودها سقتها امها داء الخوف منهم ، ولعلها علة لا تعرفها تستقر في جسمها النحيل ، أو في شعرها الغزير الاسود كشعر هرة متنمرة . في بطن الوادي تلتقي بعلتها الخفية . هناك تشعر بالتمرد . قسوة في الخبز ومرض يتراكم حتى يشابه بلادة الغنم وركود الماء في البحيرة النائمة تحت اقدام الجبل . حتى السماء الفسيحة الحانية تتحول في الليل الى زمجرة تنشر الصقيع . حقا هي حلوة . لكن الى متى الحياة في كنف الظلام ؟ أتريد حقا أن تكون كأمها صاحبة بيت ؟ أحيانا تفكر في التراب العالق بثوبها وخشونة قدميها وشعرها المبعثر فلا تدري ماذا تريد. لماذا هي خانقة وعشرات من صواحبها مثلها في الوادي وفي صنعاء كلها .

صنعاء ! كم تود أن تطوف بها زائرة كالاميرة . لو أن اولئك السحرة صنعوا لها حبالا تسير عليها آمنة من السقوط لطافت بصنعاء . وربما كان بمكنهم أن يصنعوا لها فرسا يطير بها في الفضاء حتى ترى بلادا أخرى غير صنعاء . كم هي ساذجة . ولينها ساذجة . انها شيء غريب يجعلها تفكر في شيء مجهول . تريد أن تكون اميرة يركع لها السحرة والكهان . هذا عبث ضائع وأحلام الصبية الصغار . لعلها تريد أن تكون واحدة ليس لها وجهها . أغنامها تدوس على المرعى كل صباح فتحس

كانها تدوس على صدرها . انها بالضبط تريد أن تكون شيئا آخر . آه يا أغنامي العزيزة . لذلك تستغرب أمانيها ، وتهزا من نفسها وتصر على أن تنشغل باعداد الطعام قبل أن يعود أبوها من حقول الامير .

في البداية لم تنتبه الى تهافتها على مداعبة الغنم وأخيها الوحيد وانتفاضتها وقفزها في المرعى أو في الدهليز المفضي الى الحجرة الوحيدة. لكنها تنبهت اخيرا الى الرضاء المفقود ، والبكاء الصامت الزاحف على بشرتها السمراء الناعمة ، ورائحة اللحم المحترق وسذاجة الدجاج ونعاس الغروب .

طالما دارت الهواجس الشيطانية التي تدور في أعماقها ، لكنها ـ ذات صباح ـ واخر طيف يبتعد ويغيب في الافق . ذهب أبوها فانفرد بها الصمت وداعبتها الشمس . وعما قريب يعود فيلوث الاصيل الباسم بعينين غائبتين ونظرات زائغة يثير فيها الرعب والاشفاق . لن يعود . أو لتهرب قبل أن يعود . أخيرا عرفت موقع القدم تحت الغطاء . الهرب حياة جديدة تلغي كل شيء وتصلح ما أفسده الماضي . لا تزال الشمس جمرات حامية . والغنم تتجول كأن ليس في الكون جديد . أما هي فقد زاغت في الحشائش الممتدة تحت قدميها . ليست عيناها الا نافذة تلقي العدوى وترسل المكتوب الى باطنها المضطرب . لاول وهلة مستها نشوة استهانة خرافية مسا سريعا . وما لبثت عيناها أن اتسعت وابتلعت الحشائش كأنها تريد أن تبتلع الوادي كله لتأتنس به من خوف يضطرب في الاعماق . واذا الحشائش خنجر يطير في الفضاء فيستقر في ظهر الهاربة . فتتوقف قدماها بعد قفز وانطلاق . واذا هي غارقة في دم يتدفق فترتد اليها المشانق الشجرية في عاصمة الامير . هزت رأسها بعنف ونهضت في بطء واستسلام فرضته شيخوخة طارئة وانهزام عابث . لم تهرب ؟ وماذا تريد ؟ لا تدري . بل لا تستطيع ان تصارح نفسها . هو الجنون اذن . أو هو سحر أضمرته الارض حتى اختلط بالطعام والهذيان .

العواصف الحانقة ـ والظلمة حليفتها ـ لا تزال تمرق في الصمت كما يمرق النصل في الجسد الضليل . والجدران أوهام وطلاسم تفتك بصوابها . الليل بطيء ينزع رأسها بين يديه ويطير بها حتى الجزيرة. ثم يلقي بها في البحر فيلثم الجرح وتتأمل كالذاهلة دمها الجاري مع الماء . وتتساءل أين أمها؟ ثاوية في التراب. لكنها لا بد أن انسلقت الى عالم مجهول . وما تلك القبور الا ذكريات لا تخفي ودائعها . أين ذلك النجم البعيد ليضيء ما في القلب من ظنون . لكن أنى للنجم أن يلتفت الى ومضة ضائعة في الفضاء . تنهدت وأزمعت أن تضغط على جفنيها حتى تغيب عن الظلام . وما هي الا دقيقة حتى نشبت وساوسها تعبث بنومها ، أستمرأتها على مضض . ورددت النظر الى سقف الحجرة والنافذة البادية كطيف تحجبه أستار بالية . هل سكرت عيناها أم هي وساوس الليل المألوفة ؟ هزت رأسها على الفراش الساخن فتلامس وجهها وشعرها المفروش على الوسادة . وما لبثت أن رأت ومضا يومض في الحجرة بضوء أبيض ثم يختفي . عرفت فيه على الفور نصلا حادا ترتفع به فيضة ابيها . ها هي عمامته البيضاء تلوح وتحتجب ، تصاعد الى رأسها دم هارب خنق التنفس . واستحالت في لحظة الى قطعة جامدة فقدت حتى الشعور بالخوف . وترددت رسائل الالم في رأسها عن طريق عينيها .

ألم أشبه بالحلم المقوت لا تدري كيف تتخلص من وطأته السادرة. حاولت أن تزدرد ريقها أو تتنفس بجرأة تعيد للدم حركته المفقودة فارتفع النصل مرة أخرى بوضوح اكثر واقترب من رأسها . احتبست في صدرها صرخة كانت على وشك أن تنطلق . واستفاقت بفكرة طارئة مرت برأسها المتجمد في موضعه على الوسادة : لماذا يقتلها وليس من سبب كاف لقتلها ؟

أيكون ما ترى أشباحا أنشأتها الظلمة أو بعثتها الامها الحائرة في الوادي تحت أقدام الغنم . عاد النصل يلمع فوق صدرها ويتدانى من عينيها حتى يوشك أن يشقهما بحده المرهف . أغمضت عينيها في اللحظة التي ندت عنها انة رفيعة اختزلت فزعها . وأحست بنفسها لا تجرؤ على النظر ، وفي باطنها دهمها شعور بالاستسلام كأنها تلقي بنفسها في ذلك البحر البعيد الذي تصل اليها انباؤه ولا تراه . غاصت رأسها في الوسادة . كأنها تتحدر في هوة . تمنت أن ترتطم بحجر يسند رأسها المتساقط لكنها كانت لا تزال تنجذب الى الوراء وتدوس الغنم على صدرها وتكاثرت الغنم على وجهها فمزقته واختلط الدم بحبات العرق فذاقت ملوحتها المنسابة في زاوية ثغرها . أتكون كراهيتها لابيها تسربت اليها بالرغم منها فبادلها شعورها الاثم ؟ لكن متى كان الاب يكره ابنته ؟ وما الحيلة في دمها المتفجر على وجهها والنصل في الفضاء المظلم يتدانى من صدرها . استجمعت قواها ونجحت في ان تصرخ صرخة سمعت صداها واهنا كأنين خافت . وفي لحظة بص شعاع كاللبن الحليب من النافذة . وعت أذناها ضجة في الفضاء انتفضت لها الحجرة. خيل اليها أن السماء تهتز . أو هو زلزال يرج الارض من تحتها . كانت أصوات انفجارات رافقت شعاع الفجر . ولقاء جديد ذاب له التوتر . وتضاءل الفراغ فتحددت معالمه . ورفت الظلمة كغلالة شفافة تهتز . كان كل شيء يهتز . الخبز والفأس والنافذة وهمهمة الغنم في الحظيرة المجاورة . أمعنت النظر فاذا النافذة قطرة في موج يجرفها . واذا هي تتكيء على حاجز الحظيرة في العراء . البيت على مقربة منها والوادي يمتد في مجاهل الفجر ، هنالك أدركت أنها اغفاءة طوتها عند الحظيرة بينما كانت تفقد أغنامها كعادتها كلما خامرها القلق عليها . لا تزال الانفجارات وزمجرة الفضاء تدفع بها الى الحقيقة ، غاصت بعينيها في الفضاء كأشلاء يلعب بها الشيطان . واعتمدت على بطن كفها وقامت ويداها النحيلتان تلمان أطراف ثوبها ، وحين تقدمت في خطوات متعثرة لتعود الى البيت كانت الاشجار أشباحا تعانقت رؤوسها مع الظلمة السابقة ، أعوادها تترنح سكرى بريح تصفر ، ورحلات الروح دفقات طبول ترافق الفضاء كالضجيج في اذان خرافية ضلت طريقها عبر الماضي البعيد . لم تدر هنالك لم ابتسمت حين كانت تغلق الباب الضخم فينبت ضوء الفجر طفلا وليدا في الافق العريض .

القاهرة — عبد العزيز مصطفى

آخر منشورات

دار الآداب ـ بيروت

ق.ل

- دور العرب في تكوين الفكر الاوروبي
  للدكتور عبد الرحمن بدوي ٣٥٠
- تجديد رسالة الغفران لخليل الهنداوي ٢٥٠
- جومبي (رواية) لاديب نحوي ١٢٥
- الخيل والنساء (قصص)
  للدكتور عبد السلام العجيلي ٢٠٠
- رحماك يا دمشق (قصص)
  للدكتور سهيل ادريس ٢٠٠